للضحك أسرار ...!

للأستاذ صلاح الدين المنجد

أدولف ڤيلّيت ، فنّان بارع ، ومصوّر مجيد ، أوتى من القدرة على الهزل فى تصويره ، وعلى تبيان المعايب فى شخوصه ، ماجعله سيد هذا الفن ، المتفوق المبرز ، فانعطفت عليه الصحف الكاريكاتورية فى باريس ، ليمدها من حين إلى حين بصور فيها إبداع وأصالة .

وصوره ذات طابع خاص بها ، وصفة لاتفارقها . فهى تبدو ، فى النظرة الأولى ، صوراً ضاحكة مضحكة ، يفور ظاهرها بالسرور ، تثير فى نفسك الإعجاب والتقدير . فاذا أنعمت النظر ودقّقت فى تلك الصور ، بدا لك أن ما فيها يدفع إلى التأمل والتفكر ، وأن فى أعماقها كآبة تدفع إلى الحزن وعبرة تبعث الألم .

سألته يوماً فنانة باريسية جميلة عن سر ذلك . فأجابها « نعم . إن فى كل شيء ، مهما كان ، قليلاً من الأسى . ويجب أن نزينه بالضحك ليخفى ، لئلا يؤذى أحداً ، أو يؤلم أحداً ! . .

وجواب الفنان جدير بالتأمل . فالحزن فى الحقيقة ، لايفارق الانسان . لأن هذه الدنيا لاتربح . ربما أوتى أحدنا المال ، ولازمته الأمراض ؛ أو أوتى العافية ، وسلب المال ؛ أو قعد به الحظ المنكود عن الترقي ، وفى نفسه آمال ؛ أو نال بسطة من العلم فأهمله ذوو الشأن ؛ أو حسده الأصدقاء والأقران ؛ أو اشتهى ولداً يوهب له ، على سمة من غنى ، وعلو فى الجاه ، فلم يوهب له الولد ، فتبقى فى نفسه حسرة على ما أمله ، وحزن على مافاته . لكن ماذا يفيد إذا أظهر حزنه ؟ ومانفع التحسر والوجوم ؟ إن الحزن والشكوى والبكاء ، أشياء تثير الشفقة علينا ، وتدل على ضعفنا ، وفي الشفقة علينا حطة لنا ، ثم هى قد تدفع الناس للابتعاد عنا ، لأنها تؤذيهم ، وتؤلمهم ، أو تذكرهم بآلامهم . فالحزن يبعث الحزن ، ويذكر بالشجى . والدمع يستدر الدمع ، ويجلب الأسى . والناس تكفيهم أحزانهم ، وربما نسوها لحظة أو ساعة ، فاذا ذكرناهم بها تألموا . والدنيا ، وما فيها ، أقصر من أن نقضيها بالحزن . . ولا بد من التجلد فاذا حزنت فاجعل حزنك فى قرارة نفسك . وأظهر الفرح . بل اضحك . . اضحك دائما ، فلا تؤذى الناس .

بل إن هذا الضحك يؤدى ، ولو كان يخفى وراءه الحزن ، إلى إعجاب الناس بك ، وإلى اكتساء رداء من الجمال ، واكتساب مناعة ، لا تؤثر فيها ، على الأيام ، المصائب والآلام . ولولاهذا لما كانت العرب تمدح من كان ضحوك السن ، بسّام المشيّسات ، طليق الوجه . ولولاهذا ، أيضاً ، ماكانت تذم من كان عبوساً أو قطوباً ، أو حامض الوجه ، كأنما وجهه منضوح بالخل

وقد تيقنت ، أن الضحك ، ولو كان يخفى الحزن ، يكسب الجسم مناعة ، لا يؤثر فيه معها المصائب بعد حادثة شاهدتها بنفسى

ففي عودتى من القاهرة فى يناير الخالى ، لقيت فى القطار سيدة فرنسية تحدر نحو الخمسين ، وما تزال ناضرة الوجه ، ريانة الجسم ، كأنها اختبست الشباب في جسمها ، ولم تفلته . وكان يزيد فى جمالها حديث رقيق يُغرى ، ولطف شديد يغوى . فعجبت منها ، وتساءلت فى نفسى عن سر احتفاظها بالشباب والجمال ؟

وكان بجانبها فتاة لم تتخط العشرين من عمرها ، علمت أنها ابنتها ، كانت ذات وجه ساهم ، ونفس مكروبة . تلمح الحزن فى نظراتها ، ولفتاتها ، وآهاتها . قلت فى نفسى : ربما تكون مريضة ... أو أن داء العشق قد لحقها ....فلما بدأنا الحديث ، شدهنى من الأم فرحها وضحكها ، ومن البنت صمتها وعبوسها . كانت الأم تضحك لكل كلمة ... فيزهر وجهها ويزيد سحرها . وكانت الفتاة تعبس ، فيظلم وجهها ، ويحمض جمالها . وكانت الأم ، تلفظ الكلمة ، ترفقها بالإشارة ، وتردفها بالضحكة ؛ ضحكة رقيقة تهيج فرحك وسرورك . والبنت ترسل النادرة ، إذا تندرت ، بلفظ خشن وجفاء ظاهر . فعجبتُ ، ومازلت حتى سألت الأم :

— إنى لأراها حزينة .. أتشكو ألماً ؟ ...

قالت : أوه ! كلا . .إن هذا الجيل لا يعرف كيف يحيا . إن فى الحياة سراً ، لا يهتدى بها ، إلا من عرفه . دعها ، إنها لا تسمع منى . الحياة عابسة ولا تُغلب إلا بالضحك . قلت لها

ذلك فلم تعقل . هـذا ما كنا نسمعه من عجائزنا اللواتى عشن سعيدات . أما اليوم ، فالحياة تعبس وهم يعبسون . عبوس يجر الحزن ، وحزن يدفع إلى الموت البطىء . أليس الأمر كذلك يا سيدى ... ؟

ثم أطرقت ... وعادت تقول :

« يا أسفا على ذلك الزمان ، أيام كانت أمى توصينى أن أضحك دائماً . لقد ضحكت كثيراً ، فهنئت . كنت أضحك لأتفه سبب ، وفى قرارة نفسى حزن جاثم شديد . أوه ! ماذا أحدثك ؟ لقد جعلتنى ضحكاتى أجمل فتاة بين صواحبى . ثم وجدت فيها ما يخفف من آلامى ، ثم صرت إذا أصابتنى مصيبة تعمدت أن أضحك ، لأنسى همومى . أتدرى أننى رزئت فى ابنى وبنيتى؟ لقد ابتلع البحر ابنى وهو فى العشرين من عمره ، وماتت ابنتى الصغيرة فى الألب ، وأصابتنى فى هذه الحرب كوارث تحطم ، وكنت أحزن وأبكى ، ثم أعود إلى الضحك ... وأصبر ، فيذهب الحزن ! .

قلت لها : إنها وصاة جديرة أن تتبع يا سيدتى . لو عرف الناس هذه الأسرار ، لضحكوا...

قالت : أؤكد لك أنهم لو عرفوها لما تركوا الضحك أبداً.

كانت أمي تقول : إن فى الضحك أسراراً ليست فى شىء غيره . ضحكة بل بسمة ترضى زوجك إذا كان مُغْضَباً . وضحكة رقيقة تأسر عقل زائرك ولو كان جافياً . اضحكى ، استعينى على قضاء حاجاتك بالضحكات والبسمات . اضحكى ، وأنتِ فى نزعك . . فإن ذلك يثير شفقة الناس ، ويزيد فى دعائهم لك ، وحبهم إيّاك . اضحكي وأنتِ حانقة مغيظة ، فإن الضحك يهدىء ويُرضى . بل اضحكى إذا أُهنتِ يوماً ، ولم تستطيعى أن تنتقمى ، فإن ضحكك يزيد فى غيظ خصمك . فإذا واتتك الفرصة بعد ذلك فانتقمى منه .

لقد أثر حديثها فى نفسى . وأنستُ به . وأدركت هـذه الفضارة التى تسيل فى جسمها وترفّ على خديها ، وهـذا النور الذى يتألق فى عينيها .

إن الناس جميعاً لا يستطيعون أن يفعلوا كل هذا . ولكن ألا يمكن أن يفعلوه إذا اعتادوه ؟

ثم إنه يظهر بعد هـذا ، أن فى الضحك ، ولو كان يخفى الحزن ، سراً .

وأن هـذا السر يقاوم الأمراض ، أو يدفع الجراثيم . إن علماء النفس يشيرون إلى النشـاط الذى يتدفق فى الجسم ابان الفرح . وكأن هذا النور الذى يفيض فى الابتسام والضحك ، ينشط ويقوى ، وكأن مادة كهربية تربح الأعصاب ، وتزيد فى العافية ، بل كأن فيه ما يشفي فعلاً من بعض الأمراض .

فقد ذكرت أن « برغسون » الفيلسوف الفرنسى الشهير ، أجهده التفكير والعمل ، قبل موته بعشرسنين،فضعفت أعصابه، وبدت عليه أمارات النورستانيا ، فلجأ إلى الأطباء ، فلم ينج بعقاقيرهم مما هو فيه . حتى أشار عليه واحد منهم بأن يضحك . فعجب الفيلسوف ، وألح الطبيب :

« إن دواءك الفرد هو أن تضحك يا سيدى . فاضحك كل يوم ساعة ، أو ساعتين . . . » .

وانطلق الفيلسوف إلى داره يضحك من نفسه ، ومن الطبيب . ولكن كيف يضحك ساعة أو ساعتين ؟ وتعمد الضحك وتكلفه ، ثم لجأ إلى الملاهى ، يشهد كوميديات موليير التى تثير الضحك . فكان يضحك ، فى أعماق قلبه . ولم تمض غير شهور قلائل حتى شعر أنه شُفي . وعندئذ تساءل عن السر الذى يُشفى ، ووضع دراسته المسماة « Le Rire »

فالشفاء هنا ، أتى من موافقة الضحك الجسم ومداواته المرض وإراحته الأعصاب .

ورأيت من قبل أن بالضحك حفظت السيدة الفرنسية شبابها وبنت لحمها . وأعتقد أن الجاحظ العظيم قد فطن لذلك ، فقال :

« وما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شىء فى أصل الطباع ، وفي أساس التركيب . لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى ، وقد تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه الذى هو علة سروره ، ومادة قوته . . . »

* * *

فاضحكوا . . فإن ضحكة واحدة تخرج من أعماق قلبى ، فيستريح بها عقلى ، ويشفي جسمى ، وتبعث فىّ القوة والنشاط ، لهى خير مما يجمعون .

دمشق

صبوح الدين المنجد